التداخل المعرفي بين البلاغة وعلم اللغة النصي قراءة في المفاهيم والإجراءات

The cognitive overlap between rhetoric and textual linguistics Reading the concepts and procedures

حمدية زدام*

تاريخ الإرسال: 2023/12/31	تاريخ القبول: 2025/10/28	تاريخ النشر: 2026/06/10

الملخص:

تقدم البلاغة نفسها على أنها نظرية في النص، ومعرفة حصيفة في أبنيته، فهي تشكل إمكانات إجرائية جديرة بالتقصي، من خلال محور دينامي يعد سيرورة قرائية لامتناهية تتجاوز المراتب لترسم معالم من التلاقي بعلم لغة النص الذي يستدعي الكثير من القواعد التي تعود للبلاغة، فهل هناك مستويات من التواشج بين المجال المعرفي والمنهجي لهذين العلمين، سنحاول في هذه القراءة إظهار ملامح ثبوت البينية، باعتبار أن علم النص أكثر المناهج استيعابا للمقولات السابقة في دراسته للنص، وهي الاستراتيجية نفسها المتاحة في البحث البلاغي، وعلاقته بقواعد الانتظام التي تقدمها قوانين اللغة، وسنأخذ بالمنهج التحليلي في استقراء مادة البحث، ومقاربة الطروحات المعرفية، ومقارعة الرؤى العلمية من خلال وسيط من أفكار بلاغية وأفاق من الدراسات اللسانية.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، النص، الاتساق، الإحالة، الأسيقة.

Abstract:

Rhetoric presents itself as a theory of the text, a discreet knowledge of its structures, It constitutes cognitive and procedural capabilities worthy of investigation, through a dynamic axis that is an endless reading process that transcends all levels, to draw features of convergence, The language of

*جامعة أبي بكربلقايد تلمسان- hamdiazeddam6@gmail.com

the text, which calls for many of those textual rules, Through this cognitive intersection, is it possible to identify levels of compatibility between the cognitive and methodological fields of these two sciences? In exploring the characteristics of the text and its relationship to the rules of organization provided by the laws of language, approaching cognitive propositions, and confronting scientific visions.

***Key words**: Rhetoric, the text, cognitive, characteristics, visions.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: حمدية زدام، hamdiazeddam6@gmail.com

1. مقدمة:

يعد علم لغة النص textuel linguistics من العلوم التي ترتكز على خاصية جوهرية وأساسية في تفعيل آلياته، وإعمالها، وهي خاصية التداخل والبينية التي تطبع صفة التشاكل والاشتراك بينه وبين مجالات معرفية متعددة.

فأكثر أسسه ومعارفه منتقاة من علوم تتداخل معه تداخلا شديدا، مما يزيد في ثراء نتائج تحليلاته، ويكشف عن المزيد من شبكات التطابق الناجمة عن مستويات من الربط والعلاقات بين أبنية النص ووحداته.

ويهتم علم اللغة النصي بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة منه، وأهمها: الترابط أو التماسك ووسائله، وأنواعه، والإحالة أو المرجعية Référence وأنواعها والسياق النصي textuel contexte ودور المشاركين في النص[1] ... وكل ذلك في إطار من العلاقات المنتظمة يحددها نظام الفعل اللغوي[2].

ولا يخفى علينا أن العلاقة بين علم لغة النص والبلاغة، علاقة تقاطع وامتداد وتأثير[3]، فمحور التقاطع بين العلمين هو النص، ومجال البلاغة أيضا هو مضمون النص، وأبنية المعنى، إلى جانب اهتماماتها الأساسية بتحليل جوانب لغوية ودلالية داخل النص، وهذه الملامح تؤكد مستويات التواشج بين مجال العلمين وهي دلالة واضحة على الصلة الوثيقة بينهما، إلى حد جعل الباحث اللساني "فان دايك" يعدها السابقة التاريخية لعلم

النص يقول: «إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص، إذ نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام، المتمثل في وصف النصوص، وتحديد وظائفها المتعددة»[4].

وهذه منهجية علم اللغة النصي التي تتمحور مهمته في وصف الشروط والقواعد العامة لتكوين النص وصفا منظما، وأن يوضح أهميتها لتلقي النص[5].

والبلاغة فن ينجذب نحو الخلق والتميز في الشكل وحسن التخريج ... فالبلاغة منهج يمس خاصية ملازمة للإنسان وهي الكلام[6]، وبصفتها منهجا، فإنها تتميز بمجموعة من القواعد تكوّن في مجموعها بناء معقدا ينزع إلى أن يصبح علما واسعا يستوعب جميع قضايا عالم النص.

والبلاغة بهذا المنظور تصبح وعاء ثقافيا متداخل الاختصاص يهدف إلى استثمار البحوث المختلفة في علوم أخرى، فهو علم شامل، والنموذج العام الذي يستوعب أفكار ومضامين العلم الإنساني[7].

كما ترتكز البلاغة على التفاعل الحاصل، الذي يحدث بين القارئ الذي أُنشئ النص لأجله، ولغة النص، التي تتحرك فيها أحداثه، وتحمل مضامينه، في عملية تواصلية، يتحقق فيها نسيج لغوي في أجود صياغاته، وأحسن تخريجاته.

2. اللغة بين البلاغة وعلم لغة النص:

اللّغة هي المملكة التي يتخاصم على امتلاك أسوارها، ويتنازع على فتح مقفلات أبوابها، الباحث اللّساني، وعالم الأنثروبولوجيا، والبلاغي، والنحوي...[8].

وليس بوسعنا في هذا السياق أن نستغرق البحث في استعراض كل المسائل اللغوية المتعلقة بالنص، بقدر ما نحاول مناقشة بعض مظاهر امتزاج الدلالة بالرمز، والمعنى الردف الذي تحققه أبنية إضافية عديدة، تضفي على الإبداع آثارا مميزة، وشكلا جذابا له قوة من الاستمالة والتأثير، وهذه قضايا يشترك فيها مجال العلمين، ويتقاطعا في كثير من جزئياتها.

إن اللغة نظام من الرموز، بل هي عدة أنظمة فرعية داخلية متشابكة، يجمعها نظام واحد كلي، ويتصف هذا النظام بالتماسك والوحدة والمنطقية، فيمنح الكلام للخطاب تلك الحيوية والدينامية، والاستمرارية والتغير، وتحرص اللغة على ضبط النظام بالثبات[9]، والترابط بين الأبنية النصية التي تنصهر في متن الخطاب، مشكلة رسالة هادفة وبقصدية معينة.

ومهمة البلاغة هي البحث في خصائص الكلام، وفي علاقته بقواعد الانتظام، التي تقدمها قوانين اللغة، وما ذاك التفرّد، والتميز بين الخطابات، إلّا من خلال علائق معيّنة لها صلة بالانتظام[10]، وهذا من خصائص اللغة التي تجسد كما ذكر دي سوسير، الصورة الذهنية المختزنة في ذاكرة مستخدمي هذه اللغة، فهي المستودع الذي يضم صور العلاقات في عقول هؤلاء الأفراد المتحدثين بها.

أما الكلام فهو أداء الفعل، وفعل الانجاز الملموس للغة، من قبل المتحدث، وهو أداء نفسي واجتماعي معا، يحدث نتيجة لتأثر السامع بموقف معين، المرهون بأساسيات العملية التحليلية من مؤثرات، وظروف، وهيئات وسياق التلقي...، وهي تشكل القواعد الضرورية في بناء النص لدى البلاغيين، ولا يمكن تحييدها عن استقراء شفرات النص.

فاهتمامات البلاغة إذا تتوجه إلى المستمع أو القارئ لتؤثر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصية في البحث اللغوي النصي لأن عملية الاتصال رهينة أطراف، حضورها يحقق خصائص العملية التواصلية (نص، منتج، متلق)، وكيفيات التفاعل بينها، ويمكن أن تتضح العلاقة في عدة تصورات ومظاهر محققة هذا الترابط، والامتداد البيني بين مجالي العلمين ...[11]

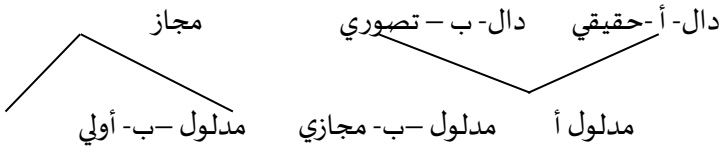
فاللغة هي الأداة المهيئة لدخول عوالم كامنة في النص، فهي خصيصة جوهرية في هذه البنية، وعن طريقها نستطيع ملامسة تلك البنى المصاحبة التي يحملها محور ظلال المعاني، وثواني المعاني كما تساعدنا على استكشاف الخبيء، واستحضار الغائب، وهنا يكمن جوهر اللغة، الذي يتمظهر في وضعية انتهاك قواعد اللغة[12].

فتفكيك المدلول يظهر وحدات دلالية صغرى، تنتمي إلى المجال الظاهر للملفوظ، والوضع النهائي للتفكيك يدرس ضمن مستوى، تحت لغوي Infra linguistique وهنا

يفرض علينا الوضع التعامل مع المستوى الدلالي[13]، وتجاوز ظاهر الكلام، والاقتصار على الوحدات الجوهرية الخبيئة في ثنايا الكلام، وهنا سنلجأ مرة أخرى إلى الاستعانة باللغة لتحليل اللغة، في إطار جدلي في تحليل الخواص الأساسية للنص، وتحليل المفاهيم الإجرائية أثناء التعامل مع التحولات النوعية للمعنى، وتقصي الدلالات الحافة، والإيحائية التي تحملها مقولات ضمنية غائبة.

فهي نسق لساني يساعدنا على استكشاف ثوابتها، ومعالمها التي تتعدد بتعدد خلفيات النص ومتلقية.

وقد ذهب البلاغيون إلى التمييز بين الوحدات اللغوية للنص، فهناك وحدات تلتزم مكانا واحدا في الجملة (وحدات ثابتة). ووحدات تتمتع بحرية الحركة (وحدات متحركة دينامية). وأن الانحرافات تتصل بالوحدات المرنة[14]، التي تحتاج منا إلى لغة ثانية كآلية لسد فجوة المسكوت عنه. ويشرح لنا تودوروف هذه الاستخدامات الدلالية، وكيفية استكمال نقص اللغة في هذا التخطيط الآتي:



تمثل هذه الترسيمة، مجموعة متداخلة من العلاقات إحداها تتصل بجوهر المادة، والثانية بعلاقاتها، فالوحدات تبقى كما هي، ولا يمس التحول سوى علاقاتها[15]، وهذه رؤية البلاغيين للغة المجازية التي تتجلى في المقام الأول بإحلال عناصر غير مألوفة محل عناصر القول العادية.

ويذهب علماء لغة النص إلى أن الكلمة، وهي الوحدة الصغرى من سلسلة القول، تتضمن مجموعة من العناصر الدلالية (الجزئيات الصغرى) غير أن بعضها نووي والآخر سياقي، بحيث ينتج مجموعها أثرا هو الدلالة، ذلك أن إعادة تنظيم الوحدات الدلالية الصغرى هو الذي ينتج هذه الانحرافات اللغوية والاشكال المجازية[16].

وتسهم هذه الجزئيات في تشكيل بنية كبرى تستوعب تدرج الأنظمة، وينظر إلى النص اللغوي من خلالها، بوصفه نصا في موقف أو حدث اتصالي أو شبكة من العلاقات الناتجة عن تظافر نُظمه بمستوياتها المختلفة، وتكون المهمة التي يطمح إلى تحقيقها أو إنجازها هي مناقشة النص وسياق الإبلاغ الأدبي Poetic Communication ومن حيث إنتاجه Production ومن حيث استقباله Réception ومراعاة العوامل الأدبية والاجتماعية Sociopoetic والنفسية Psychopoetic وهي كلها عوامل تؤثر في النص ومتلقيه[17].

لقد استثمر علم البلاغة، وعلم لغة النص ما جاء بهدي سوسير من نظريات لسانية حول دراسة اللغة وبخاصة ما يتعلق بمسألة التتابع والانسجام والمحقق لمبدأ التضام Collocation بين أجزاء الجملة، وتتابعها، فكل جزء داخل الجملة يرتبط بما قبلها وما بعدها، في إطار علاقة تركيبية Syntagmatic وأخرى استبدالية رأسية Paradigmatic ويقصد بها دخول الرمز الواحد في علاقة مع كل الرموز[18] المشكلة للبنية الكبرى للنص، ونستبين من هذه المسائل في التوافق الحاصل بينها وبين معايير ثبوت النصية ومدى مطابقتها بقضايا بلاغية، وقد سبق إلى هذا حازم القرطاجي (ت 684هـ) أثناء حديثه عن العلاقات الترابطية لأجزاء القصيدة، فسمى كل قسم منها فصلا، وميّزه عن المطلع وهو البيت الأول منها، والمقطع هو مكان الوقوف، كما لا يهمل الإشارة إلى طريقة وصل الفصول بعضها ببعض، إذ يشترط أن يكون معنى كل فصل تابعا لمعنى سابقه، ومنتسبا إليه في الغرض، ويسمى ذلك بالاطراد في تسويم رؤوس الفصول، ويمضي في تطبيق هذه التصورات على قصيدة المتنبي: أغالبُ فيك الشوقُ والشوقُ أغلبُ ...

فيوردها كاملة، محلل العلاقة بين أجزائها ووحداتها المكوّنة على هذا الأساس الدلالي، الذي لا يقف عند حدود التعالق النحوي بين الجملتين.

ومن هذا المنطلق[19] نستشف أن نواة النظام القاعدي للغة الخاص بمجال البلاغة وعلم لغة النص، لا يتمركز حول بناء الكلمة أو بناء الجملة فحسب، بل يشمل البناء الكلي للنص، الذي يمدد العلامة اللغوية الأساسية[20] في هذا النوع من التحليل.

3. عالم النص بين قواعد البلاغة وآليات التحليل النصي:

يعد النص مادة مشتركة بين العلمين، فهو القاعدة التي ينطلق منها التحليل، ومجال توظيف تلك الأوليات العلمية على مضامينه، لاستخلاص النتائج منها.

ويُعرّف علم لغة النص، النص بأنه وحدة متكاملة يحاول أن يقدم أشكال الاطراد، أو صور الانتظام Régularisation التي تنتج عن الاستخدام الاتصالي، وأن يعالج أشكالا نصية متباينة في سياقات تفاعل اجتماعي مختلفة من زوايا عدة...[21]

فالنص هو الموضوع الرئيس في التحليل والوصف اللغوي الذي يقوم على عناصر داخلية، وأخرى خارجية، بكيفيات لغوية خاصة. وطرق تركيبية تستند إلى اعتبارات سياقية متنوعة، بتجاوز حدود الجملة والجزء، إلى البحث عن ائتلاف المعنى بين التراكيب الأساسية داخل الاستعمالات اللغوية.

وقد اهتم البلاغيون العرب بالنص وبعوالمه الداخلية، فاعتنوا بالكشف عن الترابط القائم بين سلسلة من الأقوال المؤلفة لفقرة أو مجموعة من أجزاء العمل الإبداعي، كما اهتموا بدراسة الأبنية الخاصة والوظائف الجمالية والبرهانية للنص، وهو الاهتمام نفسه الذي حظي به النص من قبل علم اللغة النصي، بعنايته بالأبنية النحوية للجمل والنصوص، وبالشروط والخواص التي تتصل بالأسيقة المتعددة في مختلف المواقف والأحوال[22].

وأفضل نظرة إلى النص ما جاءنا به هاليداي ورقية حسن إذ يريا أنه وحدة دلالية A Seman Unit وهذه الوحدة ليست شكلا Form لكنها معنى meaning لذا فإنه –أي النص- يتصل بالعبارة أو الجملة بالإدراك لا بالحجم Realization.

وفي تعريف آخر لهما يركزا على[23] الجانب الحيوي للغة وهو الذي يكسبها وظائف متنوعة، تختلف وتتباين بتباين الموقف، فيعتبرا النص لغة وظيفية، ويقصد بالوظيفة هنا اللغة التي تفعل أو تؤدي بعض الوظائف في بعض السياقات Language tha's is doing some job in some context[24] وهو أيضا وحدة دلالية وفعل إنتاج وعمليات تبادل المعنى بين المشاركين في الحديث أو الحوار[25].

ويعرفه "برينكر" بأنه تتابع متماسك من علامات لغوية[26].

وتؤكد هذه التعريفات ضرورة حضور خصائص مثل عنصر الترابط بين أجزاء النص ومبدأ التماسك بين علاماته اللغوية ومراعاة صلة النص بالموقف وتحقق سمة الاستبدال من نصوص أخرى.

وبالإضافة إلى ذلك، فهو يرتكز على جملة من الوحدات التي يطلق عليها الأبنية الصغرى، المتمثلة في المتتاليات والأجزاء التي تجعل من النص كلا منسجما، وتحقق فيه صفة الشمولية. وكانت للدراسات البلاغية الدور الكبير في معالجة قضايا النص[27]، مثل قضية الإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، وغيرهما ...

كما أن الدراسات التي قامت على النص الشعري تثبت بعض الخصائص التي صارت من أولى اهتمامات علم اللغة النصي.

فمن بين الأسس الفنية للنماذج الشعرية اعتماده على الوحدة العضوية، التي تعني تجاوز مراعاة الجزء[28].

ومن هنا تخطت البلاغة مجال الجملة والجزء إلى مجال أرحب، وهو مجال النص، ويمثل المستوى الدلالي في معالجة النص مثالا آخر، على تجاوز حدود هذا المستوى الضيق المرتبط بالجملة، إلى أفق دلالي لا يتحقق إلا بوجود روابط تقيم ذاك التكامل بين الجمل، فتتولد عنه معان كفيلة بتغطية مستوى النص.

ويرى "هروست ازنبرج Hrost Isenberg" أنه يوجد مفهومان للنص، يختلف بعضهما عن بعض اختلافا جوهريا، يتعلق بطبيعة القواعد المحددة لبناء النص، وبالفهم النظري للعلاقة بين النص والجملة، ويطلق الباحث على هذين المفهومين، المفهوم القضوي والمفهوم الدينامي للنص[29].

ويقوم المفهوم القضوي للنص على أنه وحدة مستقرة ذات خواص تركيبية ودلالية وبراجماتية تقوم على قواعد الإحالة وأدوات الربط.

في حين يقوم المفهوم الدينامي للنص على أساس أنه وحدة تواصلية وخاصة بالفعل الكلامي وما يشير إلى الموقف[30].

وما يهمنا في هذا السياق هوما يتعلق بالمركبات القضوية للنص، والعناصر المساهمة في تنظيم وحداتها كقواعد الاحالة الداخلية، وهوما يصطلح على تسميته في علم اللغة النصي بـ: Endophora، وهو عنصر يترجم العلاقات الإحالية اللغوية، التي تساعد على تركيب النص وتماسكه، وهو نوعان إحالة قبلية Anaphora، ووظيفته الإشارة إلى ما سبق، وإحالة بعدية Cataphora [31]، وهي الإشارة إلى العنصر اللاحق، وهوما يعادله في النحو العربي، ضمير الشأن ويعرفه علماء الله بأنه: «رد استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى، سوف تستعمل لاحقا في النص أو المحادثة»[32]. كقوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ "سورة الإخلاص"، فالضمير هو يحيل على لفظة الجلالة (الله)، ويمثل هذا النوع من الإحالة الجمل والعبارات التفسيرية، كما في أسماء السور والجمل الأولى منها.

وعكس Endophora، Exophora، وهو إحالة خارجية، تشير إلى الأنماط اللغوية التي تحيل إلى الموقف الخارجي عن اللغة، من أحداث ومواقف وملابسات محيطة بالنص.

كما نجد بروز عدة مصطلحات خاصة بهذا اللون من الدراسة والتحليل[33]، وهي مصطلحات قد وجدت لها ما يقابلها في الدراسات اللغوية والبلاغية القديمة كمصطلح التماسك النصي، وتمثله تلك الروابط الشكلية والدلالية، وهي عدة أنواع، ومصطلح التضام الذي يعني المصاحبات اللغوية بين أجزاء الجملة الواحدة. أو أجزاء النص، وهو نوع من الاتساق المعجمي[34]. والمصاحبة تسير إلى الطريقة التي يمكن من خلالها انتظام الكلمات معا، وإلى القيود المستعملة لبيان كيفية تضام الكلمات معا، مثل حروف الجر ومعمولاتها ...[35]

بالإضافة إلى مصطلحات أخرى كالمرجعية والتداولية، والتواصل ... وقد وجدنا حضور هذه الأنماط من العلاقات في مباحث عديدة عن النص واللغة لعلماء البلاغة، وموقفهم من المعالجة النصية، في قضية الفصل والوصل، ونظرية النظم التي تؤكد خصائص هذه المعايير من اتساق وانسجام ... وغيرها من العناصر التي تساهم في وصف النص، والكشف عن علاقاته ونصيته.

فقد ورد مصطلح التضام Collocation لدى الجرجاني عند حديثه على الكلمة إذ «لا تكون مفيدة إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة

ونابية ومستكرهة، وغرضهم أن يعبروا بالتمكن من حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق ... سوء التلاؤم. وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ...»[36] وهو بهذا الرأي يقترب كثيرا من التحليل النصي، ويتمثل بسور القرآن الكريم، ويرد فضل الإعجاز إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض. وفي قوله موضحا سبب عجز العرب عن النص القرآني[37] أنهم تأملوا سور القرآن «فلم يجدوا كلمة ينوبها مكانها ولفظة يذكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما، والتئاما، واتفاقا، وإحكاما...».

وهذا يشير إلى تقارب الرؤى في التحليل والبحث عن البواعث والأسباب المؤدية إلى استقامة النص. ورأي الجرجاني يتمحور حول نظرة كلية شمولية في محيط النص، باعتباره الوحدة الكبرى في التحليل، مع توظيفه لمصطلحات جوهرية استعان بها علماء لغة النص، والمرتبطة بالعلاقات الداخلية، والجوانب الدلالية، والإحالات الخارجية، التي تحيط بعالم النص، وأثر التماسك والتعالق في إحكام نسيج النص. وهناك الكثير من الشواهد في كتابه حول أهمية هذه الإجراءات اللغوية، وهي كلها شواهد تؤكد فضل السبق والمزية للبلاغيين العرب في طرق هذا الباب اللساني الحديث، إنها لمحات تؤكد إدراك القدامى لكثير من الجوانب المرتبطة بقضايا النص، وعلم لغة النص[38].

ويرى علم لغة النص التماسك كظاهرة تأويلية دينامية من الفهم المعرفي، تتداخل فيها معارف متنوعة كثيرة لأن معيار التماسك يرتكز على أساس دلالي محوري، يطلق عليه البنية العميقة للنص، وهو مجموعة من المركبات القضوية المترابطة مع بعضها على أساس موضوعي من خلال علاقات منطقية دلالية[39].

والعلاقات الداخلية بين المتتاليات النصية تحقق الترابط بين البنايات وأجزائها وما تشير إليه من دلالات مرجعية تحيل على روابط أخرى امتدادية خارجية متعلقة بالمفهوم، وهو يشمل الظواهر المتعلقة بالفعل الكلامي التواصلي وما يشير إلى الموقف[40].

وتعد الروابط من المكونات الأساسية التي يستقيم بها بناء النص، بالاعتماد على أدوات مخصصة تتوزع على أسيقة النص، وهي التي تحافظ عليه منظما ومرتبا Structure، لأن النص عالم خاضع لترتيب بنياته، واستتباع أحداثه[41]، إذ تتحول هذه

الحركات والأعمال إلى ألفاظ تتعاقب وفق محور الزمن الذي يوافق سرد الأحداث في النص، عن طريق أدوات الربط التي تتوزع بين الجمل الحاملة للأحداث، والخاضعة لطبيعة العلاقة الجامعة بين العنصرين المتتابعين[42] والتي نعبّر عنها باسم الروابط وهذه الآليات أصلها راجع إلى تركيب أنواع الوصل التشريكي (العطف) سواء منها المنسوقة الدالة على الفرعي من الجمل، مثال حرف (الواو)، وحرف (أو) وأداة التعليل (لأن)، وكذلك (من أجل أن ...) ووظيفتها تكوين جمل مركبة من جمل بسيطة، وفئة ثانية من الروابط تؤخذ من أبواب الظروف الاسمية والحرفية وما تركب منها من شبه الجمل مثل (مع أن) وكذلك (بالرغم من أن)، ... وتعبر هذه الروابط عن العلاقة بين القضايا[43].

كما تعد العناصر الإشارية من الروابط، وهي تمثل عناصر أساسية في عالم النص، والتي لها مفهوم التعيين أو توجيه الانتباه. (الآن، هنا، هذا) وهي تحيل على المقام، وتحصر تعيين المرجع الذي تشير إليه، وهي بذلك تضبط المقام الإشاري Deieticcontext، وهي غير ذات معنى[44]، ولكن لها شرط أساسي في فهم الملفوظ.

ومثلها الضمائر، وبعض العناصر المعجمية، وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة، فتعالق الجمل بعضها ببعض لا يقوم فقط على الوصل والعطف Conjonction، فقد يقوم على الفصل Disjonction وجميع هذه الآليات تجعل من النص شديد الانسجام والاتساق، بطريقة تيسّر على المتلقي تسلم الرسالة واستساغة شفراتها التي بثها المتكلم)[45]، وفي أراء عبد القاهر الجرجاني ما يجعلنا نقيم الحجة مرة أخرى على أن الدراسات البلاغية قد تطرقت إلى كثير من الفرضيات الخاصة بعلم قواعد النص، إذ يرى أن مدار الحديث ليس في الألفاظ المفردة والتي موقعها المعجم، وإنما الشأن يقوم على «النظر في الجمل التي تسرد، ليعرف موضع الفصل منها من موضع الوصل، ثم يعرف ما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، ... فيضع كلا من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة، وعلى ما ينبغي له»[46].

إن العلاقات القائمة بين الأسيقة اللغوية هي وليدة تلك الأدوات التي حققت وظيفة التأليف والضم بين الجمل ومعانيها.

ومن خلال تأملنا في هذه المفاهيم يتضح لنا أن البلاغة تملك قدرة على استيعاب آليات جديدة، كما تتفق إلى حد بعيد مع النموذج المعول عليه في علم اللغة النصي الجديد، في تتبع معايير النص، وشروطه في تحقيق علاقات بين الأبنية اللغوية، والنظر في إحالاته، والتتابعات الجملية المترابطة ... داخل تنظيم خاص، يطلق عليه نظام الترابط النصي[47]، الذي يخلق بنية تملك تنظيما خاصا من داخلها، ورؤية دلالية من ذاتها[48]، وهومن دواعي الكفاءة النصية، أو المعيار الأهم في نصية النص الذي يجعله نسيجا واحدا وبنية كلية[49] بين مقتضى الحال، وعناصر الموقف التواصلي للنص.

1.3. بين مقتضى الحال وعناصر الموقف التواصلي للنص:

يشمل معنى البلاغة دلالة الإبلاغ أو التوصل الذي هو موضوع علم الاتصال، إذ يمكن تحديد البلاغة انطلاقا من هذا المفهوم، بأنها عمل المتكلم على إيصال الشفرة إلى السامع، من خلال قناة وفي مقام معين.

وانصراف البلاغة إلى هذا الطرح المرتبط بالمتلقي[50] جعل منها تتقاطع مجددا، مع الاتجاه اللّساني الذي يُعنى بالعلاقة بين بنية النص، وعناصر الموقف التواصلي، وقد اندرجت الدراسات البلاغية التي تصب في هذا المحور حول المقام والحال، وهي عناصر غير لسانية مؤثرة في ظروف الكلام من جهة الباث والمتلقي معا، وأول مصادفة لفكرة مقتضي الحال، ما كان مساقا في صحيفة بشر بن المعتمر، لما أوعز الشرف، والمنفعة، والصواب في موافقة الحال، وما يجب "لكل مقام من مقال" وقد شمل الخطاب عدة قضايا، كان لزاما على المتكلم أن يأخذها بأهمية بالغة في توجيه كلامه، وهي تخص جانب المتحدث إليه والفعل الاتصالي، ونوعية الرسالة وباللفظ والمعنى، والمستوى الثقافي، والحالة النفسية، والإيجاز والإطناب.

ويمكن تعريف فكرة "مقتضى الحال" بمدى مصادفة الكلام لما يليق به، وتغير المقام يفضي إلى تغير المقتضى. ويتوجه هدف البلاغة إلى المتلقي، ولا يتوقف حدها عند التأثير فيه، بل يتجاوزه إلى الإقناع، بمناسبة الخطاب الموقف، والنظر في عملية إنتاج النص وبنائه[51].

وعلم النص يجنح إلى كثير من الأفكار المتعلقة بهذه المسألة، والتي تعود إلى البلاغة في إجراءاته وعملياته.

لقد اتسع علم لغة النص في الأساس، بضمه تلك القواعد والنماذج والاستراتيجيات المتاحة، وتجاوزها إلى إمكانات أخرى، توفرت له من خلال الامتداد المعرفي، واتساع الأفق، والتداخل التصوري، ومكنته نظرته الشمولية من تخطي الامتداد الأفقي، إلى أبعاد دلالية وإشارية وإحالية، وإيحائية تستعصي على النظر المحدود، وهو يضع في الاعتبار مستويات القراء وأحوالهم النفسية والاجتماعية، وتعدد القراء، وأشكال التواصل، ودرجة الفهم والاستيعاب ... وغير ذلك من التصورات، والعمليات التي لم يتح لعلم من قبل أن ينهل منها ويفيد منها[52].

وإذا كان لاوسيرج يري أن البلاغة نظام له بنيته من الأشكال التصورية، واللغوية لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد فإن ليش H.Leich، يرى أن البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما، مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما[53].

فالبلاغيون المحدثون يهدفون إلى تقديم النص باعتباره فضاء يبحث عن شبكات التعليق متعددة الأبعاد، تحمل أشكالا بلاغية عديدة، تقود بدورها إلى إحداث تأثيرات سياقية معقدة، ويزيد من صعوبتها أن هذه التأثيرات السياقية سرعان ما تنظم إليها تأثيرات ناجمة عن مستويات رمزية أخرى، خاضعة للنظم والأعراف الاجتماعية، إذ أن المجتمع[54] له ضوابط وقيود يفرضها على مستعملي اللغة[55]، ليصبح النص اللغوي من هذا المنظور "نصا في موقف"[56]، حيث تمتزج فيه صورة العالم الخارجي بهدف المتحدث، مركزا على الصلات الاجتماعية والسياق التاريخي، الذي يستحضر عناصر أخرى مصاحبة. إنه التطلع إلى فهم أدق لعمليات تقع خارج اللغة الواقعية، عمليات استلزمتها غايات تفسيرية لا محدودة، تتأبى على أن تنغلق في حدود الأطر الظاهرية، والنظرات السطحية، وترنو إلى استمرار التفاعل بين النص ومتلقيه، في حركة تحافظ على دينامية النص من جهة، وعلى تعدد القراءة، وثراء التفسير من جهة أخرى[57].

والبلاغة تشتغل هي الأخرى في حدود هذا المجال من أجل غايات متقارنة ومتجاورة مع غايات علم لغة النص، الذي يعد التمثيل المعاصر لعلم البلاغة.

4. الخاتمة:

بعد تعقبنا لمحطات فاعلة ومتضامنة بين مجال البلاغة وعلم النص، نخلص إلى قيمة ما قدمته البلاغة القديمة من قطوف استأنست بها علوم أخرى ظلت تحف بها، وتمتاح منها، على محوري المفاهيم والإجراءات، وكانت هذه المقاربات يلفها الكثير من التداخل والامتزاج لحد خلق مشقة في التعامل مع المصطلح، والفكر بوجه من الدقة تستقيم معها الرؤية وتنكشف بها الحجب والمغاليق.

فقد شملت البلاغة الأفكار الأساسية، والجوهرية التي عنيت الدراسات النصية بالتوسع في جوهرها وآفاقها، إذ سدت مستويات التمازج والتلاقح بين العلمين الفجوة الحاصلة في ذهن المتلقي، حول علاقة التضمن والاندراج بين البلاغة وعلم اللغة النصي، فانطلقت آفاقه اللسانية من مضامين بلاغية، التي انطاع لها بدءا، فكانت الأساس والمصدر الذي أخد منه أصوله، واغترف منه معارفه، فيجنح إليه في أكثر من آلية، وإجراء في تفعيل أوليات النص وأبعاده القرائية.

فكان فضلها عليه في الأدوات والمنهج في مقاربة النصوص، واستكناه خفاياه، والاستجابة لمقتضيات التحليل اللساني المعاصر، وهي معطيات قد جانبت مجال البلاغة، مستثمرا في الآن ذاته أفكارا وطروحات علمية مصدرها علوم أخرى. قد تقاطعت مساراتها في أكثر من محور.

إنّنا أمام مجال متخصص في علاج النص، يأخذ بسمات مستقلة، وطريقة متميزة، يجسد منجزا علميا يصبو إلى بناء بلاغة عامة للخطاب يأبى الانغلاق في بوتقة المتداول من أنساق الظواهر القديمة برؤيتها الجزئية، والاختزالية. ويتسع لمبادئ البلاغة الجديدة، فيستوعب مكوناتها وينفتح على الحداثة، والإفادة من معينها في إطار المواءمة التي تتيح لنا قراءة التراث القديم بآليات مستحدثة معاصرة.

5. الهوامش:

[1]-صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة،1431، 1/ 36.

[2]-المرجع السابق، ص 5.

[3]- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف، (د ط)، مصر، ص 26-37.

[4]- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والإجراءات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، (د ط)، القاهرة، مصر، 2004، ص 20.

[5]- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر: سعيد حسن البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط 1، 2005، ص 17.

[6]- هنريش بليث، البلاغة الأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، (د ط)، 1999، ص 22-23.

[7]- ينظر: إبراهيم عبد الفتاح رمضان عبد الباقي، فن البلاغة وعلم لغة النص، مادة الكترونية: kenanaonline.com.users.ebraheemramadan

[8]- أنظر: صابر الحباشة، أهمية اللغة في الدراسات اللسانية والدلالية المعاصرة في كتاب "قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة واللسانيات، ط 1، سوريا، دمشق، 2009، ص 35.

[9]- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 21.

[10]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[11]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[12]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط 1، الجيزة، مصر، 1996، ص 80.

[13]- المرجع السابق، ص 85، يشير صلاح فضل بمصطلح تحت لغوي إلى الظواهر الصوتية فوق مقطعية، كالنبر والتنغيم، وهي غير قابلة للتقطيع، ولكن لها الأثر الكبير في تغير معنى التركيب، وتنوع دلالته الخاضعة لطبيعة سياق المقام، والظروف المحيطة بالحدث الكلامي.

[14]- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 70.

[15]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 183.

[16]- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 70.

[17]- ينظر: المرجع السابق، ص 71.

[18]- فردينارد دي سوسير، محاضرات في الألسنة العامة، دار العربية للكتاب، (د ط)، طرابلس، 1985، ص 27.

[19]- ينظر: حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق، محمد الحبيب بن خوجة، (د ط)، تونس، 1966، ص 117.

[20]- كلاوس بيرنكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمنهاج، ترجمة، سعيد حسن البحيري، ص 23.

[21]- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 93.

[22]- ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 318.

[23]- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 30/1.

[24]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[25]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[26]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[27]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 330.

[28]- المرجع السابق، ص 52.

[29]- سعيد حسن البحيري، إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط 2، القاهرة، 2010، ص 164.

[30]- المرجع السابق، ص 181.

[31]- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 1/ 37- 38- 39.

[32]-المرجع السابق، 40/1.

[33]- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1991، ص 16 إلى ص 25.

[34]- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 42/1، محمد خطابي، لسانيات النص، ص 24- 25.

[35]- المرجع نفسه، 43/1.

[36]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، د ط، صيدا، بيروت، 2004، ص 92- 93.

[37]- المصدر السابق، ص 89.

[38]- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، 133/1.

[39]- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 100.

[40]- سعيد حسن البحيري، إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة، ص 18.

[41]- الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نص، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، 1993، ص 42-43.

[42]- المرجع نفسه، ص 46-48.

[43]- فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي التداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، (د ط)، المغرب، 2000، ص 83.

[44]- الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 116. وينظر كذلك: إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط 1، عمان، الأردن، 2007، ص 197- 198- 199- 200.

[45]- للاستزادة ينظر: د. أحمد عفيفي، نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، القاهرة، 2001، ص 118 وما بعدها.

[46]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، (د ط)، بيروت، 1981، ص 64-65.

[47]- المرجع السابق، ص 97.

[48]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[49]- يعود هذا الرأي لجون كوهين، وروبرت دي بوحر اند، ودرسلر، المرجع السابق، ص 103- 104.

[50]- ينظر: د. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، القاهرة، 2000، ص 16.

[51]- المرجع نفسه، ص 26-27.

[52]- سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، ص 23.

[53]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[54]- المرجع السابق، ص 25.

[55]- المرجع السابق، ص 34

[56]- المرجع السابق، ص 24.

[57]- أنظر: المرجع نفسه، ص 25-26.